جدليّة العلم والإيمان في التصور الإسلامي (*)

د. حراث بوعلاقي
مدير مركز الدراسات الإسلامية
بالقيروان - جامعة الزيتونة

ليس من الموضوعيّة أن ننظر إلى ثقافتنا المعاصرة على أنّها ثقافة حداثيّة رافضة للتّقليد والانغلاق والتحجّر وتقديس الموروث وفي نفس الوقت نجد أنفسنا مقلّدين لثقافة تجاوزها الزّمن، ثقافة كان لها مبرّرها الزّماني والمكاني.

ومن المفارقة أن ندّعي العقلانيّة ونؤكّد على توخّي الموضوعيّة لما تتّصفان به من تحرّر في الرّؤيا ودقّة في الحكم وفي نفس الوقت نقع في التّعميم فنحكم على مسألة ما دون الإحاطة بموضوعها وبخصوصياتها.

وليس من العدل والمنطق أن نحمّل ثقافة ما وزر ثقافة أخرى أو نحكم على دين معيّن من خلال ممارسات ضالّة يدّعي أصحابها أنّهم أوصياء على الدّين ولا يعرفون عن الدّين شيئا.

(*) بحث قدّم في ندوة : "العلم والايمان" التي نظّمها المعهد الأعلى لأصول الدّين أيّام 13 - 14 - 15 أفريل 1999.

في ظلّ تعايش مثل هذه المفارقات برزت جامعة الزيتونة في عهدها الجديد لتعيد القراءة في مسائل تبدو قديمة من أجل تصحيح المفاهيم وتوسيع دائرة المعرفة داخل مجتمعنا المسلم وخارجه وفي هذا الإطار كان موضوع ندوتنا «العلم والإيمان» قديما ومتجدّدا لأنّه محلّ اهتمام الفكر بالأمس واليوم وغدا ولأنّه موضوع الإنسان في كلّ عصر الإنسان الذي يبحث باستمرار عن التّوافق بين تركيبتيه الماديّة والروحيّة. لهذا لا غرابة أن يتكرّر البحث في هذا الموضوع خاصّة بين المسلم والآخر لمعرفة مدى الاتفاق أو الاختلاف في ثقافتنا الدّينيّة التي هي جزء من هويتنا. إنّ إعادة البحث في مسألة العلم والإيمان خاصّة بين كفاءات تحمل ثقافات متنوّعة ضروري اليوم ونحن نعيش عصرا نسعى فيه إلى تحقيق التّقارب ونشر السّلام وهذا لا يتحقّق عمليّا إلاّ بمعرفة البعد الثّقافي والمعرفي أوّلا لأنّه متى توصّلنا إلى إيجاد محطّات مشتركة خاصّة في ثقافتنا الدّينيّة استطعنا أن نخطو الخطوة الأولى في مسيرتنا نحو بناء مجتمع إنساني منسجم ومتعاون ومحترم للخصوصيات. إنّ اختلاف الثّقافات وتنوّع المعتقدات لا يمنعان من وجود مصالح مشتركة نسعى جميعا إلى حمايتها فاللّه خلقنا من أجل أن نكون مختلفين قال تعالى :

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ» (1)

ثمّ قال : «هُوَ الّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (2)

(1) الـرّوم 22/30.

(2) التغـابن : 2/64.

وفي مجال أنّ الاختلاف لا يمنع التّعاون والتّعارف قال تعالى :

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» [3].

إنّ الاختلاف حقّ إلهي ولا يحقّ لأيّ مثقّف مهما كان توجّهه الفكري أن يستنقص من خصوصيّات غيره ولا أن يحكم على فكره بالانغلاق والتحجّر لمجرّد أنّه يختلف معه في وجهات النّظر لأنّ الحقيقة لا يمتلكها أحد.

فالحقيقة وحدها هي المنتصرة على الخلافات وانتصار الحقيقة هو المحبّة [4]. جاء عن المجمع الفاتكاني الثاني : «إنّ الرّجل العام في هذا العصر هو الذي يأخذ من النّاس ويعطي للنّاس ويعلّم ويتعلّم ويكتشف ويستلهم مواضيعه وهو داخل أحضان النّاس» [5]. وفي ظلّ احترام التوجّهات والخصوصيات تقام ندوتنا هذه لمعرفة العلاقة بين العلم والإيمان هل هي علاقة تصادم أو تكامل ؟

لا أريد في هذه المداخلة تقديم تفصيلات تتعلّق بموضوعي العلم والإيمان وما يشتمل عليه كلّ منهما من تفصيلات لا يتّسع لها المقام هنا بل فقط الانطلاق من مفهوم عام لمعنى العلم والإيمان لمعرفة مدى التّفاعل بينهما.

وفي ظلّ البحث عن الحقيقة وتنوير الطريق للخروج من القراءة الإيديولوجيّة وتجاوز الموروث الثقافي والقوالب الجاهزة يطرح اليوم من

(3) الحجرات : 13/49.

(4) الفاتكان : من أجل حوار إسلامي مسيحي، منشورات دار الجديد ص 47.

(5) المرجع نفسه ص 172.

جديد موضوع العلم والإيمان. ولمعرفة الجدليّة القائمة بين كلّ من العلم والإيمان لا بدّ من الإجابة عن أسئلة أساسيّة مثل :

- ماذا يعني العلم بمفهومه الشامل ؟
- ما هي مرجعيّة كلّ من العلم والإيمان ؟
- ما هي أهميّة العلم في مرجعيتنا الإسلاميّة ؟
- ما هي مرجعيّة القائلين بالفصل بين العلم والدين ؟
- هل المسيحيّة النّصيّة تحارب العلم وترفض الحياة ؟

بمحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تتّضح العلاقة القويّة بين العلم والإيمان.

I - ما معنى العلم بمفهومه الشّامل :

العلم من علم يعلم علما يعني حصول المعرفة بالشيء عن طريق اليقين [6]. وهو عمليّة للخلق وفق منهج موضوعي يوصل صاحبه إلى الكشف الدّقيق والمعرفة الصّحيحة بالموضوع. والعلم يوصف بالنّزاهة والتجرّد وبالشّموليّة وبما أنّ العلم عموما هو المعرفة بالشيء فإنّ هذه المعرفة تتنوّع بتنوّع الموضوع محلّ البحث. فهناك من الموجودات ما يدرك بالحواس المجرّدة ومنها ما لا يعرف إلاّ بأدقّ الآلات ومنها كذلك ما لا يعرف إلاّ بعملية التّفكير وبعضها لا يدرك إلاّ بالعلم الدّيني الذي يخصّ به الله عبدا من عباده ومن الموجودات ما لا يدرك إلاّ بالوحي الإلهي إلى نبيّ من أنبيائه من هنا نلاحظ أنّ المعارف متنوّعة بتنوّع المعلوم فهناك معارف حسيّة تهتمّ بالموجودات الماديّة المحسوسة وهناك معارف فكريّة نظريّة لا تدرك إلاّ بالعمل الفكري المجرّد وهناك من المعارف ما لا يدرك إلاّ بالوحي.

(6) المنجد مادّة علم ص 527.

ومن هنا كانت المعارف تنحصر في ثلاث دوائر: دائرة الحس، ودائرة العقل، ثمّ دائرة الوحي. ومن هنا يصبح من الخطأ حصر الحقيقة في دائرة واحدة من دوائر المعرفة المشار إليها لحاجة كلّ مستوى منها إلى الآخر. فالمعرفة الحسيّة تحتاج إلى العقل ليميّز ويستخلص. والمعرفة العقليّة تنطلق من الحواس وتتّسع لتتجاوز حدود الحسّ. والمعرفة بالوحي تهدي العقل وتهتدي به لأنّه كما يقال : العقل بلا وحي أعرج والوحي بلا عقل أعمى.

فالعقل يمثّل القاسم المشترك في جميع أنواع المعرفة لأنّه الفطرة التي فطر اللّه النّاس عليها، فهو ملكة التّميّز وأساس التّكليف.
فما هيّ قيمة العقل في المرجعيّة الدّينيّة ؟

العقل في المرجعيّة الإسلاميّة :

العقل في اللّغة يعني الإمساك والشّد نقول عقل البعير إذا أمسكه بقيد وعقلت المرأة شعرها إذا شدّته وأمسكته والعقل هو الملجأ والحصن.

وفي الإصطلاح يعني أداة التميّز والتّثبّت والمعرفة، وهو الملكة التي كرّم بها اللّه الإنسان حتّى يكون مؤهّلا لتحمّل رسالة الاستخلاف وما تستوجبه من ضرورة المعرفة بالموجود حتّى يتمّ تسخيره والاستفادة منه. وبالعقل يتحقّق البناء والتّعمير. ونظرا لأهميّة العقل في مختلف مجالات الحياة تمّ التّركيز عليه في المرجعيّة الإسلاميّة فتكرّرت مادّته ودلالته [7] بما يدلّ على الوعي والتّمييز والإدراك والفهم والاستدلال

(7) تكرّرت مادّة عقل اكثر من خمسين مرّة إلى جانب ما يستنهض العقل كقوله تعالى : لقوم يتفكّرون، لقوم يتدبّرون، يا أولي الألباب، افلا يبصرون، افلا ينظرون. انظر مثلا : آل عمران 190/3، القصص 72/28، الغاشية 88/17 ـ 19.

والاعتبار مثل قوله تعالى : «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» [8]، وقوله عزّ وجلّ : وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمونَ» [9].

كما اهتمّت به السنّة النّبويّة واعتمد عليه المفكّرون من فقهاء ومتكلّمين فمن السنّة روى الطّبراني أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : «أوّل ما خلق الله عزّ وجلّ العقل فقال له : أقبل فأقبل، ثمّ قال له أدبر فأدبر ثمّ قال له عزّ وجلّ : وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم عليّ منك بك آخذ وأعطي وبك أثيب وبك أعاقب» [10] وروت السيّدة عائشة قالت : «يا رسول الله بم يتفاضل النّاس في الدّنيا ؟ قال : بالعقل. قالت : وفي الآخرة. قال : بالعقل، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون» [11].

والعقل عند الفقهاء هو أساس التّكليف والاجتهاد، والعقل كذلك هو عمدة المتكلّمين في الدّفاع عن العقيدة وتأكيد الايمان الصّادق قال ابن حزم : «ذهب محمّد ابن جرير الطّبري والأشعريّة كلّها إلى أنّه لا يكون مسلما إلاّ من استدلّ وإلاّ فليس مسلما» [12] وعلّق ابن حزم على هذا بقوله : «قد اتّفق الجميع على أنّ التّقليد مذموم وما لم يكن يعرف بالاستدلال فإنّما هو تقليد» [13]. هذا عن أهميّة العقل في مرجعيّتنا الإسلاميّة فما هي منزلة العلم في التّصوّر الإسلامي ؟

---

(8) الرّوم 28/30.

(9) العنكبوت 43/29.

(10) الطّبراني في الأوسط.

(11) رواه التّرمذي في السنن.

(12) الفصل، دار الفكر : 35/4.

(13) المصدر نفسه.

II - العلم في المنظور الإسلامي :

إذا كان كتاب موسى عليه السّلام (التّوراة) قد نزل مرّة واحدة وبدأ بالحديث عن تكوين العالم ثمّ اهتمّ بتاريخ بني إسرائيل الاجتماعي والحربي.

وإذا كان الإنجيل المروي عن عيسى عليه السّلام قد بدأ بالحديث عن نسب السيّد المسيح فإنّنا نجد القرآن الكتاب الخاتم قد بدأ يتنزّل بالدّعوة إلى طلب العلم عن طريق القراءة والقلم فكانت سورة العلق - أوّل ما نزل من الذّكر - تأمر الإنسان بالقراءة لأنّها الطّريق الصّحيح والوحيد لطلب العلم والمعرفة، وبالعلم كرّم اللّه عبده فأسجد له الملائكة، وبالعلم ارتفع الإنسان إلى مصاف الكمال قال تعالى : «شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ» (14).

ونظرا لأهميّة العلم أمر اللّه الإنسان أن يطلب العلم في كلّ مراحل حياته لأنّ المعرفة لا تتوقّف عند حدّ. قال تعالى : «وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْمًا» (15).

إنّ العلم الوارد ذكره في القرآن الكريم هو العلم الشّامل الذي يحقّق الإنسان به خيره في الدّنيا والآخرة، ونظرا لأهميّة العلم تكرّرت مادّته (علم) أكثر من سبعمائة وخمسين (750) مرّة. وسمّيت سورة كاملة بالقلم لأنّه وسيلة الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمعرفة، والإشادة بالعلم في القرآن الكريم تعود إلى أنّه الأساس السّليم في بناء الحياة الطيّبة.

(14) آل عمران 18/3.

(15) طه 114/20.

والعلم النّافع للإنسان والمنصوص عليه في الكتاب والسنّة لا يتوقّف عند العلم الشّرعي بل يتعدّى ليشمل كلّ علم مفيد، لهذا نبّه القرآن إلى استعمال أدوات المعرفة المشتركة بين جميع العلوم وخاصّة العلم التّجريبي كالنّظر والاستدلال والتّفكّر والاعتبار وتحرّي الحقيقة، كلّ هذا من أجل الوصول إلى الحقيقة في تعاملنا مع محيطنا خاصّة المادّي منه لنتمكّن من استثمار عناصره وهذا لا يتحقّق إلاّ بالعلوم الصّحيحة القائمة على التّجربة لما تحقّقه من فائدة مزدوجة فائدة دنيوية تساعد على الاستقرار الأفضل لبني آدم وفائدة دينيّة تكمن في معرفة عظمة المبدع وحكمته.

ونظرا لأهميّة العلم في حياة المجتمعات رفع اللّه منزلة أهله مثل قوله تعالى : «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِين يَعْلَمُونَ والّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» [16]. وقال عزّ وجلّ : «يَرْفَعُ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ والّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» [17]. وبما أنّ الإنسان في التّصور الإسلامي خلق ليعيش دنياه ويعمل لآخرته كان من الضّروري أن يحقّق حضوره لينجح في الدّارين والنّجاح يتمّ بمعرفة الواجبات التي لا تستقيم الحياة إلاّ بها، فمعرفة الانسان لنواميس الوجود واجبة ومعرفة كيف يستفيد من الموجودات واجبة ومعرفة كيف يتفاعل في محيطه واجبة ومعرفة اللّه الصّانع والمسيّر واجبة لأنّه جوهر الإيمان.

قال تعالى : «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ» [18]. والعلم في التصدّر الإسلامي قرآني التّسمية فاللّه هو الذي خصّه بشرف التّسمية، وقرآني في مضمونه لأنّه بيّن مجال نفعه، وقرآني في منهجه لما أكّد عليه من

(16) الزمر 10/39.
(17) المجادلة 11/58.
(18) القصص 77/28.

وجوب التأمّل والتّدبّر والتحرّي والتّمييز وكلّها من مميّزات آليات المعرفة.
والعلم النّافع للإنسان ثلاثة قسام :

1 ـ علم بالمحسوس المادي :

يقوم هذا النّوع من العلوم الضّروريّة لحياة الإنسان على النّظر والتّفكّر واستخلاص القوانين بهدف معرفة حقائق الأشياء لأنّ كلّ ما يحيط بنا يعمل في نظام محكم وفق نواميس كونيّة هادفة وبحسن استخدام المؤهّلات التي وهبها الله لنا نتمكّن من تحصيل المعرفة بعناصر الوجود. وبالمعرفةيحصل التّفاعل مع المحيط وهذا النّوع من المعرفة لا يقع إلاّ بالعلوم التّجريبيّة : كعلم الطّبيعة وعلم الأحياء وعلم الفيزياء وعلم الفلك وغيرها من العلوم المتفرّعة عنها فهي جميعا ضروريّة لحياة الإنسان المادية ولا يستقيم الوجود والاستمرار إلاّ بها وميزة هذا العلم أنّه متطوّر بتطوّر مستوى التّفكير، ومتّسع باتّساع دائرة المعرفة الحسيّة والنّضج العقلي وترقّي الأدوات. والقرآن الكريم يحفّز الإنسان على مزيد الرّقي في سلّم المعرفة لأنّ الانسان يطمح دائما نحو الأفضل قال تعالى : «وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْمًا» [19]. وفي أفضليّة العلم والعلماء قال تعالى : «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ والّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» [20].

2 ـ العلم بالمعقولات :

يضمّ العلم بالمعقولات معرفة المجرّدات التي تتجاوز حيّز الحسّ ولا تدرك إلاّ بالعقل وتتّسع هذه الدّائرة لتشمل العلوم الرياضية والفلسفية والحقيقة الدّينيّة ويتجاوز هذا النّوع البحث عن : ما هذا ؟ وما خصائصه ؟ إلى البحث في كيف ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟ والإنسان

(19) طه 114/20.
(20) الزّمر 9/39.

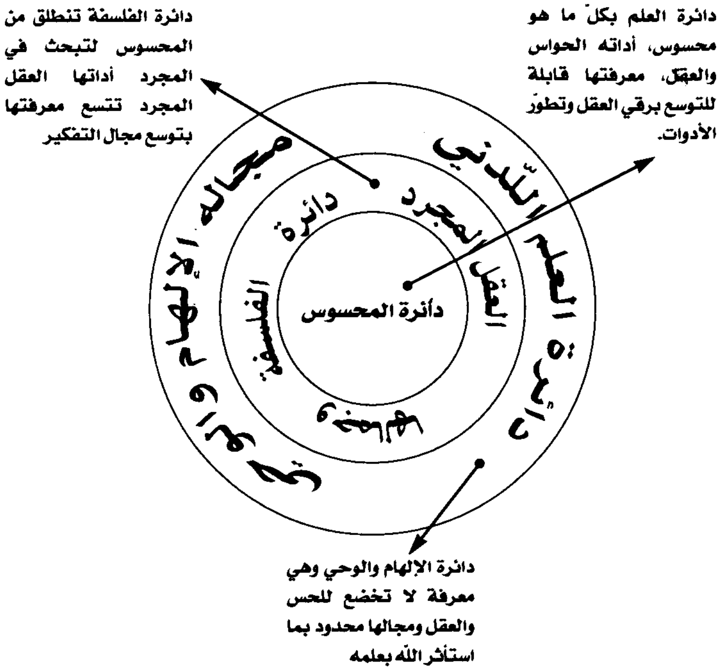
بطبيعته منشغل بهذا النّوع من المعرفة كانشغاله بالمحسوسات لأنّه متعطّش إلى المعرفة التامة وإذا كان بالنّوع الأوّل بنظر وتجرّب ويستنتج فإنّ العلم بالمعقولات يمرّ به إلى التّقويم والبحث عن الغاية الأبعد من وجود المحسوس. لهذا أكّد القرآن مرّة أخرى على النّظر والتّعقل من أجل توسيع دائرة المعرفة لتتجاوز حيّز المحسوس لأنّ المعرفة كلّما كانت أوسع كانت الحقيقة أوضح قال تعالى: «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» [21]، وقوله: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ» [22]، والمعرفة بالعقل المجرّد أوسع من المعرفة بالمحسوسات ورغم سعة أفقها وإحاطتها يبقى مجالها محدودا بمحدوديّة أفق العقل في الإنسان، وبعد هذه الدائرة القابلة للتّوسع بتوسّع العلوم تبقى حقيقة ثالثة تتجاوز مجال المحسوسات والمعقولات وهي مستوى ما وراء الحس والعقل المعروف بالوحي.

3 - العلم اللّدني :

وهو الحاصل عن طريق الإلهام والوحي وهو نوع من المعرفة خصّ بها الله من شاء من عباده، وهو الدّائرة الأوسع في مجال المعرفة لتجاوزها حدّ المحسوس والمعقول ويتضمّن هذا النّوع السّمعيات وأخبار الماضي والإخبار بالمستقبل وهي معارف إيمانية تصديقية. قال تعالى: «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا» [23]. وقوله عزّ وجلّ: «وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» [24]. وبهذه المستويات الثّلاثة للمعرفة يحيط الإنسان بعالمه وبما يشغل فكره وروحه وهذا هو الإنسان بتركيبته المعقّدة فهو موجود

(21) آل عمران 7/3.
(22) الرّعد 19/13.
(23) هود 49/11.
(24) يوسف 6/12.

مـادي يقـوم على المحسـوس وهـو عـقـل يفكّر ويتأمّل ويتسـاءل باسـتـمـرار وهو كذلك روح طيّبة تطمح إلى عالمهـا. هذه هي مستويات المعرفة عند الإنسـان والتي يمكن رسمها في شكل توضيحي كالتّالي :



من هنا نلاحظ أنّ المعارف الثّلاث دعا إليها القرآن لحاجة الإنسان إليها جميعا ومن هنا نقول إنّ العلم لا يتعارض مع الوحي بل يكمّل الواحد منهما الآخر وقد عبّر عن هذا التّلازم الإمام الغزالي عندما شبّه العقل وهو أداة المعرفة العلميّة، بحاسّة البصر وشبّه النّقل وهو أداة المعرفة الدّينية الإيمانيّة بالنّور. فالبصر لا يهتدي بانعدام النّور، والنّور لا يدرك بفقدان البصر. كذلك العقل والنّقل لا يستنير العقل بدون وحي ولا يُفهم النّقل بدون عقل [25].

(25) أبو حامد الغزالي : معارج القدس نقلا عن أبي ريدة، الملتقى الإسلامي المسيحي السادس. تونس.

والقرآن الكريم كمرجعيّة إسلاميّة لم يتوقّف عند الدّعوة إلى طلب العلم وتفضيل العلماء بل وضع كذلك الخطوط الكبرى للمنهج العلمي فأكّد على التزام الموضوعيّة في كسب المعارف قال تعالى : «وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً» [26]. فالإنسان مسؤول عن استخدام مؤهّلاته التي ميّزه اللّه بها حتّى يكون عارفا وعالما بمحيطه وبما يسعى إلى فعله ليدرك الغاية من وجوده كإنسان خليفة.

كما أكّد على ضرورة التحرّي في كسب المعرفة قال تعالى : «وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ» [27]. ثمّ قال : «فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَا سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» [28] ثمّ عاب على الذين لا يتحرّون الحقيقة ويندفعون وراء أهوائهم بقوله تعالى : «هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» [29]. تدعو هذه النّصوص إلى ضرورة التّحرّي في كسب المعارف مهما كان مجالها وهذا يعضّد القول بأنّ الدّين المنزّل من اللّه لا يتعارض مع جوهر العلم والمعرفة بل النّصوص تؤكّد على وجوب طلب العلم وفق منهج موصل إلى معرفة الحق. لهذا كانت الدعوة متكرّرة إلى طلب العلم قال تعالى : «قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ» [30].

(26) الإسراء : 36/17.

(27) البقرة 120/2.

(28) يونس : 89/10.

(29) آل عمران : 66/3.

(30) يونس : 101/10.

وقال : «قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ» (31) ثمّ قال : «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ» (32).

إنّ حقيقة الوجود لا يدركها إلاّ العقلاء المفكّرون فهم العلماء بتوقّفهم عند معرفة المحسوس وهم المفكّرون بأسئلتهم عن ماهيّة الموجود وهم المؤمنون لمعرفتهم الحكمة من الوجود. فالنّظر والتّأمّل طريق المعرفة في مراحلها الثّلاث المعرفة العلميّة والفلسفيّة والدّينيّة. والذي يصل إلى المرحلة الأخيرة لا يكون إلاّ من العلماء قال تعالى : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (33) وقال : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (34). وممّا يؤكّد الحقيقة القرآنيّة ما اعترف به كثير من العلماء من غير المسلمين في الكتاب المعروف «اللّه يتجلّى في عصر العلم». يقول الباحث الطّبيعي ستانلي : «إنّ جميع ما في الكون يشهد على وجود اللّه سبحانه ويدلّ على قدرته وعظمته وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتّى باستخدام الطّريقة الاستدلاليّة فإنّنا لا نعمل أكثر من ملاحظة آثار أيادي اللّه وعظمته ذلك هو اللّه الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلميّة المادية وحدها ولكنّنا نرى آياته في أنفسنا وفي كلّ ذرّة من ذرّات هذا الوجود وليست العلوم إلاّ دراسة لخلق اللّه وآثار قدرته» (35).

ويقول عالم الكيمياء جون كليفلاند : «إنّ ملاحظة هذا الكون ملاحظة تقوم على الخبرة والذّكاء وتدبّر ما نعرفه عنه من جميع

(31) العنكبوت : 20/29.

(32) الأنبياء : 16/21.

(33) النّحل : 11/16.

(34) النّمل : 52/27.

(35) اللّه يتجلّى في عصر العلم ص 28.

النّواحي سوف يقودنا إلى التّسليم بوجودثلاثة عوالم من الحقائق هي : العالم المادي والعالم الفكري والعالم الرّوحي (36). وتأكيدا على أهميّة المعرفة العلمية أكّد صلّى الله عليه وسلّم على طلب العلم لأنّه طريق تقدّم المجتمعات ورقيّها. قال عليه الصّلاة والسّلام «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم» (37).

هذا باختصار عن موقف الإسلام من العقل والعلم وقد تبيّن أنّهما من خواصّه الأساسيّة بهما تمكّن المسلمون من إقامة حضارة شامخة في مختلف فنون المعرفة وقد اعترف بشموخ تلك الحضارة كثير من العلماء والمؤرّخين. قال Humbadlt : «إنّ العرب ينبغي أن يعدّوا المؤسّسين الحقيقيين للعلوم الفيزيائيّة بالمعنى الذي نعنيه اليوم باستخدام هذا اللّفظ» (38). إذا كان هذا هو موقف الإسلام من العلم والمعرفة فما هو سرّ القول بالتّصادم المزعوم بين العلم والدّين ؟

III - أطروحة الفصل بين الدّين والعلم :

إنّ مشكلة الصّراع الموهوم بين العلم والدّين التي تطرح بين الحين والآخر داخل ثقافتنا الإسلاميّة تعود في جوهرها إلى أدبيّات عصر النّهضة في الغرب لما شهده ذلك العصر من ثورة فكريّة صارخةضدّ الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثّقافي المريض الذي كرّسته الكنيسة المسيحيّة طيلة العصر الوسيط. وكانت المجتمعات المنهوكة تنظر إلى رجال الدّين على أنّهم المالكون وحدهم للحقيقة. وقد ساعد على هيمنة الكنيسة عمق الشّعور الدّيني عند العامّة وتفشّي الجهل.

(36) المرجع نفسه ص 29.

(37) العلم والإيمان في الإسلام، وزارة الشّؤون الثقافيّة ص 166.

(38) المرجع نفسه ص 71.

وحتّى تبقى الكلمة العليا بيد الكنيسة قاوم جهازها الدّيني كلّ حركة تدعو إلى التحرّر الفكري كما حارب العلماء ممّا أدّى إلى نوع من الصّدام بين المتكلّمين باسم الدّين وبين كلّ فكر مستنير تحوّل بعد الانتهاء من الحروب الصّليبيّة إلى صدام مباشر بين دعاة الانفتاح والتحرّر وبين رجال الدّين المسيحيين أنتج أدبا متحرّرا ومعاديا للظّاهرة الدّينيّة ومناديا بفصل الدّين عن شؤون الحياة العامّة وإطلاق شعارات مناهضة للدّين كقولهم : اشنقوا آخر إقطاعي بإمعاء آخر قسّيس.

إنّ الرّوح العدائية للدّين في عصر التّنوير بأروبا كان منطلقها ردّ فعل عنيف على ممارسات جماعة ادّعت أنّها الممثّلة للدّين والمتكلّمة بلسانه. وما يمكن ملاحظته هنا هو الانتقال من محاربة رجال الدّين إلى محاربة الظّاهرة الدّينيّة فكان التّأكيد على ضرورة تخطّي الدّين من أجل إقامة حياة مدنيّة متطوّرة وبهذا تحمّل الدّين مسؤولية فساد المتديّنين. وهذا يدفعنا إلى التّوقّف عند المسيحية النصيّة لمعرفة مدى صحّة الإدّعاء القائل بأنّ السيد المسيح كان يفصل بين الحياتين : الحياة الدّينيّة والحياة المدنيّة بقوله : «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

وبالرّجوع إلى النصّ المقدّس تبيّن أنّ هذا المقطع «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» لم يرد في مجال الفصل بين العلم والدّين بل كان ردّا على الفرّيسيين الذين أرادوا الكيد للسيّد المسيح حتّى يوقعوا بينه وبين الحاكم الرّوماني وذلك بسؤالهم عن جواز دفع الجزية إليه والنصّ كما ورد في الكتاب المقدّس : «حينئذ ذهب الفرّيسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة فأرسلوا إليه تلاميذهم قائلين يا معلّم نعلم أنّك صادق وتعلّم طريق الله بالحقّ ولا تبالي بأحد لأنّك لا تنظر إلى وجوه النّاس فقلْ لنا ما تظنّ : أيجوز أن تعطى الجزية لقيصر أم لا ؟

فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجرّبونني يا مراؤون أروني معاملة الجزية فقدّموا له دينارا فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة، قالوا له : لقيصر. فقال لهم : أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه. فلمّا سمعوا تعجّبوا وتركوه» [39].

إنّ هذا النصّ يوضّح بجلاء فساد الاستدلال به على حجيّة الفصل بين العلم والدّين وأنّ ما كان يردّد هو إدّعاء في حقّ المسيحيّة النصيّة والموضوعيّة العلميّة تقتضي ألاّ نصدر الأحكام إلاّ بعد التّثبّت وأنّ سلوك المتديّنين لا يقوم حجّة على جوهر الدّين.

إنّ السيّد المسيح كرسول يحمل رسالة الإصلاح لا يمكن أن يصرّح بما يتعارض مع العلم لأنّ العلم كما تقدّم صفة من صفات اللّه وهو هدف من أهداف الدّين ولذلك تكرّرت الدّعوة إليه بشتّى الطّرق في الرّسالة المحمّديّة ولا يجوز لعاقل القول بتعارض الأديان ما دام مصدرها واحد. فالسيّد المسيح من خلال نصوص الأناجيل جاء معلّما للبشريّة وأوصى تلاميذه بالتّكريز بالدّين بهدف محاربة البدع وتصحيح القيم والدّعوة إلى التمسّك بأسباب القوّة ومحاربة التّقليد وربط القول بالعمل ومن كان هذا هدفه لا يوصف بأنّه محارب للعلم. وهذه عيّنة من النّصوص لتكذيب كون المسيحيّة تتصادم مع العلم.

ففي مجال العناية بالعلم جاء في متّى : وكان يسوع يطوف كلّ الجليل يعلّم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت» [40].

(39) إنجيل متّى ـ الإصلاح 15/22 ـ 22 والنصّ أورده مرقس : 13/12 ـ 17 ووضّحه لوقا بقوله : «فراقبوه وأرسلوا جواسيس يتراوؤون أنّهم ابرار لكي يمسكوه بكلمة حتّى يسلّموه إلى حكم الوالي وسلطانه فسألوه قائلين يا معلّم ... فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قدّام الشّعب وتعجّبوا من جوابه وسكتوا» لوقا : 20/20 ـ 24.

(40) متّى : 23/4 وانظر : لوقا : 17/6 ـ 19.

وجاء في الإصحاح السّابع : «فلمّا أكمل يسوع هذه الأقوال بهت الجموع من تعليمه لأنّه كان يعلّمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة» [41]. والسيد المسيح يفاضل بين العلماء بحسب درجة علمهم فهو يقول : «ليس التّلميذ أفضل من المعلّم» [42].

إلى جانب اهتمام السيد المسيح بالعلم والمعرفة فهو يدعو إلى التّسامح والتّآخي وهذه أبرز خصوصيّة الرّسالة المسيحيّة فهو يقول : «ولكنّي أقول لكم أيّها السّامعون أحبّوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضيكم باركوا لاعنيكُمْ وصلّوا لأجل الذين يسيؤون إليكم من ضربك على خدّك فأعرض له الآخر أيضا» [43]. كما يدعو كذلك إلى الأخذ بأسباب القوّة عند الضّرورة لمواجهة الأخطار وهذا عين الحكمة والصّواب حتّى لا ينظر إلى الرّسالة السماوية على أنّها استسلام وضعف والله تعالى يرفض مثل هذا النّوع من الحياة لأنّ المتديّن وإن كان سمحا فهو قوي مهاب الجانب قال السيد المسيح : «لا تظنّوا أنّي جئت لألقي سلاما على الأرض ما جئت لألقي سلاما بل سيفا» [44].

ثمّ قال : «ومن ليس له فليبع ثوبه ويشري سيفا» [45].

والسيد المسيح جاء رافضا للتّقليد وداعيا إلى التّجديد لأنّ الأباطيل التي كان يروّج لها اليهود لا تنسجم مع القيم الدينيّة كتقديسهم ليوم السبت بدعوى أنّ الله استراح فيه بعد خلقه للموجودات وأمرهم أن

(41) متّى : 28/7.
(42) متّى : 24/10.
(43) لوقا : 27/6.
(44) متّى : 34/10.
(45) لوقا : 35/22.

يقدّسوه ويعطّلوا شؤون حياتهم في هذا اليوم. جاء عنه قوله : «ثمّ قال لهم السّبت إنّما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السّبت» (46).

هذه أمثلة من نصوص الكتاب المقدّس توضّح بما لا يدعو مجالا للشكّ أنّ المسيحيّة النّصيّة لم تكن عدوّة للعلم ولا رافضة للتحرّر بل إنّ الحكم من مفكّري عصر التّنوير بفصل الدين عن الدنيا لم يكن إلاّ قراءة لموقف رجال الدّين الذين استغلّوا الدّين لخدمة مصالح آنيّة حتّى يبقى لهم وحدهم حقّ امتلاك المعرفة دون سواهم.

إنّ هذا الموقف القائل بالتّعارض بين العلم والإيمان المنتشر اليوم بين كثير من مثقّفينا العرب لم يعد له حضور في عصرنا هذا داخل المجتمع الذي نشأ فيه لأنّ الفكر الغربي تجاوز مثل هذه المواضيع وتفرّغ لمشاغل جديدة مطروحة على السّاحة قال المرحوم الدّكتور فاضل الجمالي : وحديثا قرأنا عن جماعة من العلماء في جامعة برنستن في الولايات المتّحدة الأمريكيّة قاموا يدعون إلى الإيمان في عصرنا هذا ولكن ما حصل من يقظة وتصحيح في الغرب مازال ضئيلا بالنّسبة إلى تيار المادية واللادينيّة» (47).

ويقول إدوارد لوثر أستاذ علم الأحياء بجامعة فرانسيسكو : "لقد عمّت أمريكا في السّنوات الأخيرة موجة من العودة إلى الدّين ولم تتخطّ هذه الموجة معاهد العلم لدينا ولا شكّ أنّ الكشوف العلميّة الحديثة التي تشير إلى ضرورة وجود إله لهذا الكون قد لعبت دورا كبيرا في هذه العودة إلى رحاب الله والاتّجاه إليه» (48). ثمّ يقول : «وأعود فأقول

(46) مرقس : 27/2.

(47) فاضل الجمالي : التّكامل بين العلم والإيمان - مجلّة الهداية، عدد 3 جانفس سنة 1977، ص 54.

(48) الله يتجلّى في عصر العلم ص 34.

إنّ دراسة العلوم بعقل منفتح تجعل الانسان يسلّم بضرورة وجود اللّه والايمان به» [49].

وفي نقد الفكر العربي المعاصر الذي ما يزال عاكفا على أدب وافد تجاوزه الزّمن يقول الدّكتور الجمالي : ولكن العديد من المسلمين الذين درسوا في الغرب أو نشأوا على المناهج الغربيّة في العلم والفلسفة تأثّروا بالنّزعة الغربيّة فجاؤوا بها إلى ديار الإسلام فصاروا يدعون إلى فصل العلم عن الدّين والأخلاق عن الدّين متجاهلين ما تحمله هذه الدّعوة من أخطار وأضرار على مستقبل أمّتهم الإنسانيّة جمعاء» [50].

إنّ خرافة الفصل بين الدّين والعلم بدأت اليوم في التّراجع خاصّة من قبل العلماء المتأثّرين بموضوعيّة البحث العلمي الذين كان موقفهم واضحا في هذه المسألة فدعوا إلى الوفاق بين الحقيقة العلميّة والحقيقة الإيمانيّة يقول روبرت كار : «عندما يطلب إلينا أن نبيّن الأسباب التي تدعونا إلى الإيمان باللّه نستطيع أن نجد في بحوثنا ما يدعونا بقوّة إلى الإيمان به» [51].

ويقول ألبرت وانتشستر : «إنّ اشتغالي بالعلوم قد دعّم إيماني باللّه حتّى صار أشدّ قوّة وأمتن ممّا كان عليه من قبل وليس من شكّ أنّ العلوم تزيد الإنسان تبصّرا بقدرة اللّه وجلاله فكلّما اكتشف الإنسان جديدا في دائرة بحثه زاد إيمانه باللّه» [52].

(49) المرجع نفسه ص 38.

(50) مجلّة الهدايا، المرجع السّابق، ص 55.

(51) اللّه يتجلّى في عصر العلم، ص 92.

(52) المرجع نفسه، ص 112 ـ 113.

ما يمكن استخلاصه ممّا تقدّم :

- أنّ القول بالفصل بين العلم والإيمان بحجّة أنّ المسيحيّة تحارب الدّين وتصادر الحريات هو قول يفتقد إلى الموضوعيّة لاعتماده على ممارسات بعض رجال الدّين لا على استقراء للنّصوص المقدّسة وهي المرجعيّة الوحيدة المعرّفة بالمسيحيّة.

- إنّ بعض مثقّفينا من المسلمين المعاصرين المنادين بالفصل بين العلم والإيمان والرّافضين للتّقليد وقعوا في اجترار أفكار تجاوزها الزّمن وهذا لا ينسجم مع فكرهم الحداثي.

- إنّ حقيقة الإيمان لا تتعارض مع الحقيقة العلميّة والعكس صحيح لأنّ كلاّ من العلم والإيمان يهتم بجانب أساسي في تركيبة الإنسان فهما في النّهاية واحد كما أنّ الإنسان بمادّته وروحه واحد وهذا الإنسجام بينهما لا ينفي وجود خصوصيات بينهما فالعلم يبقى علما في موضوعه ومنهجه، والإيمان كذلك لكنّهما يلتقيان في الهدف المشترك وهو توفير متطلّبات الإنسان حتّى يكون سليما وسويّا. إنّ الوصول إلى هذه الغاية الواحدة لا تنكشف للباحث إلاّ إذا نظر بعقل مجرّد. يقول جون كليملاند أستاذ علم الكيمياء والرياضة : «قال لورد كيلفي هذه العبارة القيمة : (إذا فكّرت تفكيرا عميقا فإنّ العلوم سوف تضطرّك إلى الاعتقاد في وجود اللّه) ولا بدّ أن أعلن على موافقتي كلّ الموافقة على هذه العبارة» [53].

إذا كان العلم لا يتصادم مع الإيمان كما رأينا من خلال النّصوص الدّينيّة في الإسلام والمسيحيّة فما هي نقاط الاتّفاق والاختلاف بينهما ؟

(53) المرجع نفسه.

المحطّات المشتركة بين العلم والإيمان :

إنّ اللّه تعالى هو الخالق للعقل الذي تميّز به الإنسان الخليفة على غيره من المخلوقات، وهو تعالى الذي خاطب المكحلّف العاقل حتّى يدرك مراد اللّه، فدعاه إلى استخدام ملكمة التّفكير لينظر ويتأمّل في ملكوت السّموات والأرض من أجل أن يعرف سرّ الوجود ليستفيد منه، لكن علاقته بالكون لا تتوقّف عند التّسخير المادّي لعناصر الوجود بل عليه أن يعرف حقيقة لا يدركها إلاّ العقلاء وهي معرفة ما وراء الوجود المادي وبهذا تحقق المعرفة العلمية المعرفة الإيمانية فالعالم الموضوعي يبدأ بالبحث ليصل إلى الإيمان.

يقول واين أولت : «يسلّم كثير من النّاس تسليما منطقيا بوجود الغاية أو الحكمة من وراء ظواهر الطّبيعة ولا شكّ أنّ الاعتقاد بوجود إله خالق لكلّ الأشياء يعطينا تفسيرا بسيطا سليما واضحا عن النّشأة والإبداع والغرض والحكمة ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من الظّواهر» [54] وقد أشار القرآن الكريم إلى تكامل المعرفة بين العلم والإيمان لأنّ الأوّل يؤدّي إلى تحقيق الثّاني قال تعالى : «وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبّكَ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ» [55].

إنّ العقل الذي هو الأداة الرئيسيّة في المعرفة العلمية وإن كان قادرا على تجاوز حدود المحسوس فإنّه يبقى مجاله محدودا في ما وراء عالم المادّة. لهذا كان الإنسان في حاجة إلى الوحي لتكتمل معارفه. وحتى لا يبقى الإنسان تائها وجّهه الوحي الإلهي إلى أن يستخدم كلّ مؤهّلاته بما في ذلك العقل ليستفيد من محيطه وبهذا كان التّكامل بين العلم والإيمان.

(54) المرجع نفسه ص 139.

(55) الحج : 54/22.

فالعلم المجرّد يوصل إلى الإيمان السّليم والإيمان الصّحيح يوصل إلى المعرفة المادّية والروحيّة.

فالوحي أضاء للإنسان الطّريق حتّى يسير على بيّنة ليصل إلى الهدف القويم، فكان القرآن دعوى صريحة إلى التّفكر والتّمعن والتدبّر. والقرآن نهى الإنسان عن الغفلة والتّقليد ودعاه إلى التّخلص من هيمنة الموروث، وحذّره من اتّباع الظنّ وهذه التّوجيهات جميعها ضروريّة في إقامة منهج علمي صحيح. قال تعالى : «وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنهِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاَ» [56].

والقرآن وضع أمام الإنسان أصول المعرفة الحسية والروحية قال تعالى : «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ» [57].

وللتأكيد على التّكامل بين المعرفة الايمانية والمعرفة العلمية وبين العقل والنّقل مثّلهما الإمام أبو حامد الغزالي بقوله : «العقل كالأساس والشّرع كالبناء ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ» [58]. ومرّة أخرى شبّههما بالسّراج والزّيت فالعقل كالسّراج والشّرع كالزّيت فما لم يكن زيت لم يحصل السّراج وما لم يكن سراج لم يضيء الزّيت» [59]. فالعقل لا تكتمل رؤيته إلاّ بالوحي والوحي لا يهتدي إلى

(56) الإسراء : 36/17.

(57) ص : 29/38.

(58) معارج القدس نقلا عن محاضرة قدّمها الدّكتور أبو ريدة ضمن الملتقى الإسلامي المسيحي السّادس (الوحي) نشر مركز الدّراسات - تونس.

(59) المرجع نفسه.

غاياته ومقاصده إلاّ بالعقل لهذا كان الخطاب للعقلاء وكذلك التّكليف. فمن لا عقل له لا مسؤولية عليه.

هذا عن تأكيد الفكر الإسلامي على التّرابط بين العقل والنّقل وبين العلم والإيمان لما بينهما من نقاط اتّفاق نلخّصها فيما يلي :

1 ـ إنّ مصدر الإيمان عندنا كمسلمين هو الوحي المنزّل على رسولنا محمّد خاتم الأنبياء وأنّ هذا الوحي نقل إلينا عن طريق التّواتر وحدّد لنا أصول الإيمان قال تعالى : «يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللّه وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الّذي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الّذي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّه وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا» (60). والإيمان والتّصديق لا يحصل إلاّ بالمعرفة قال تعالى : «لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» (61).

والعلم مصدره الحواس والعقل وهما نعمتان من اللّه أهّل اللّه بهما هذا الإنسان الخليفة ليعرف ويستفيد قال تعالي : «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ» (62).

2 ـ الإيمان في أكمل صوره هو البحث عن الحقيقة التي يطمئن إليها القلب وترتاح إليها النّفس. قال تعالى : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذينَ آمَنُوا بِاللّه وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا» (63). والعلم كذلك معرفة بعيدة عن الظّنّ يرتاح إليها العقل وتطمئنّ إليها النّفس، فكلّ من العلم والإيمان هو معرفة يقينيّة رغّب في تحصيلها الإسلام لما تحقّقه للإنسان من راحة ماديّة ومعنوية.

(60) النّساء : 136/4.

(61) النّساء : 162/4.

(62) فصلت : 53/41.

(63) الحجرات : 15/49.

لهذا ندّد الوحي المحمّدي بالذين لا يسعون إلى المعرفة ولا يستعملون مؤهّلاتهم لتحصيل المعرفة الصّحيحة. قال تعالى : «لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» [64].

وفي المتعة التي يحقّقها العلم والإيمان في النّفس يقول إدوارد لوثر: «فالإيمان باللّه مصدر لسعادة لا تنضب في حياة كثير من البشر أمّا المشتغلون بالعلوم الذين يرجون اللّه فلديهم متعة كبرى يحصلون عليها كلّما وصلوا إلى كشف جديد في ميدان من الميادين، إذ أنّ كلّ كشف جديد يدعم إيمانهم باللّه، ويزيد من إدراكهم وإبصارهم لآيادي اللّه في هذا الكون» [65]. ويقول الفيلسوف فرانسيس بيكن : «إنّ قليلا من الفلسفة يقرّب الإنسان إلى الإلحاد أمّا التّعمّق في الفلسفة فيردّه إلى الإيمان» [66].

3 - إنّ الإيمان والعلم كلّ منهما يرفض التّقليد والتحجّر لأنّهما دليل التخلّف والانحطاط. وكلّ منهما يدعو إلى الأخذ بأسباب القوّة. وهذا لا يتحقّق إلاّ بالعلم النّافع والإيمان الصّادق بأنّ الإنسان جاء يحمل رسالة التّعمير والبناء قال تعالى : «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» [67] وفي رفض التّقليد قال عزّ وجلّ : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَو كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ» [68].

(64) الأعـــــراف : 179/7.
(65) اللّه يتجلّي في عصر العلم ص 42.
(66) المرجع نفسه، ص 43.
(67) هـــود : 61/11.
(68) البقـــرة : 170/2.

وفي الأخذ بأسباب القوّة قال تعالي : «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» (69).

فالقوّة المادية في أيّ مجتمع لا تتحقّق إلاّ بالعلم والإيمان معا لهذا كان طلب العلم فريضة على المسلمين كذلك الإيمان فهو واجب في طلبه وفي تبليغه.

قال تعالى : «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» (70).

وقال صلّى الله عليه وسلّم : «من سئل عن علم ثمّ كتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» (71).

4 ـ الإيمان قول وعمل لهذا أكّد الإسلام على حسن الخلق، وتوخّي الصّدق في القول والعمل، لأنّ المسلم المؤمن لا يتعارض عمله مع إيمانه، كذلك لا بدّ أن يتنزّل العلم إلى أرض الواقع حتّى يستفيد منه النّاس، ولا يبقى مجرّد نظريات، لهذا كانت الدعوة صريحة لربط القول بالعمل.

قال تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ» (72) ومثل هذا أكّد عليه السيد المسيح جاء في إنجيل متّى : «فكلّ ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملون لأنّهم يقولون ما لا يفعلون» (73).

5 ـ والإسلام رفع درجة العلماء والمؤمنين لأنّهم أكثر النّاس معرفة بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات وهم كذلك أكثر الخلق معرفة

(69) الأنفال : 60/8.

(70) المائدة : 67/5.

(71) رواه الترمذي : كتاب العلم ـ الباب 3 : م 29/5 ما جاء في كتمان العلم.

(72) الصفّ : 2/61.

(73) إنجيل متّى الإصحاح : 3/23.

وإيمانا بعظمة الخالق. فهم أشدّ النّاس خشية لله قال تعالى : «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» (74). وقال : «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (75).

ثمّ قال : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» (76).

والرّسل وإن كانوا مؤمنين ومبلّغين للرّسالة فهم كذلك أهل علم وعمل فكانوا قدوة صالحة لأقوامهم قال تعالى : «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ» (77).

إلى جانب نقاط الاتّفاق هذه توجد أخرى تحدّد لكلّ من العلم والإيمان خصوصياته. فالعلم له موضوعه وله منهجه وله حدوده والإيمان كذلك ومن أبرز الخصوصيات :

1 ـ العلم يهتم بالوجود المحسوس والإيمان يهتم بعالم الغيب والإنسان محتاج إليهما معا في جانبه المادي والروحي.

2 ـ العلم يبحث في القوانين والعلاقات المسيّرة لظواهر الطّبيعة المادية والإيمان أو الدّين ينفذ لما هو وراء العالم المحسوس.

3 ـ العلم يدرس الظّاهرة المادية بأجزائها وتركيباتها في حين الدّين يدرس الظّاهرة كوسيلة تصل به إلى الحقيقة الكلية فالمهم في الدّين هو معرفة ما وراء الظّاهرة الحسيّة.

(74) المجادلة : 11/58.
(75) آل عمران : 18/3.
(76) فاطر : 28/35.
(77) الأنبياء : 73/21.

4 ـ المعرفة العلمية يقينيّة ونسبيّة والمعرفة الإيمانيّة معرفة يقينيّة ومطلقة.

بعد هذا العرض المختصر في بيان نقاط الاتّفاق والاختلاف بين العلم والإيمان نصل إلى أنّ العلم لا يغني عن الإيمان والإيمان لا يستغني عن العلم فالعلم بدون إيمان أعرج والإيمان بدون علم أعمى. وخير ما نختم به هذا المقال قول الامام الشافعي : «من أراد الدّنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معا فعليه بالعلم».